مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

البحر في القصّة القصيرة السوريّة المعاصرة

الدكتور محمد صالح مروشيه*

(تاريخ الإيداع 2 / 8 / 2016. قبل للنشر في 17 / 11 / 2016)

□ ملخّص □

يعنى هذا البحث بتقديم رؤية عن البحر وأثره الفعّال في نماذج من القصّة القصيرة السّوريّة المعاصرة من خلال التطرق إلى أعمال مجموعة من القصّاصين الذين جابوا البحار بحثاً عن أسرار الحياة للوصول إلى فهم الكون، والوقوف على معاناة جيران البحر، وتتجلى هذه الرؤية في الكتابات القصصيّة عند عبد القادر ربيعة، ومحسن يوسف، وسمير جعارة، وآخرين.

إن البحر في القصّة القصيرة السوريّة الحديثة، يرتبط مع قضايا الناس وتعبهم، ويجسّد علاقة الإنسان المصيريّة معه، وكأن أمواجه تتكفئ إلى أعماق الإنسان بحثاً عن الخلاص وحلم الحريّة.

ويجسّد البحر في القصّة القصيرة هموم الإنسان، وينتقل بفعل المعاناة من الهمّ الذاتيّ إلى الهمّ الوطنيّ والقوميّ عبر مقاومة بطوليّة وصراعات شاقة مع قوى الغزو الاستعماريّ المتحالفة مع أعداء الداخل التي حاولت استباحة شواطئ الوطن، فينتصر الإنسان العربيّ المقاوم على قوى الشر في ملحمة بطوليّة، ويجبرها على المغادرة، وهي تجر وراءها ذيول الخيبة.

الكلمات المفتاحية: البحر –جيران البحر– حلم الحريّة.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة– كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة–جامعة تشرين– اللاذقيّة–سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (6)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (6) 2016

The Sea in the Contemporary Syrian Short Story

Dr. Muhammad Saleh Maroushiah*

(Received 2 / 8 / 2016. Accepted 17 / 11 / 2016)

□ ABSTRACT □

This paper seeks to present a conception of the sea and its effective role in the contemporary Syrian short story through a study of the works of a number of short story tellers who travelled at sea in search for mysteries of life to gain an understanding of the universe and explore the suffering of coastal residents. This conception is manifested in the short story writings by Abul Kader Rabe'a, Muhsen Yousef, Muhammad Smeer Jua'ra and others.

The sea in the short story represents human concerns and the interdependent relationship between man and the sea. Each writer in his own way moves as a result of suffering from the private concerns to the national concerns. This is the center of Muhsen Yousef's stories through a heroic resistance and bitter struggles with the powers of evil aliened with internal powers that have attempted to control the nation's coasts. The Arab resistant triumphs over the powers of evil in a heroic epic and forces the powers to withdraw in defeat.

Keywords: Sea, Coastal Residents, Search for Freedom.

* **Associate Professor, Department of Arabic, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدّمة:

مازال الأدب العربي الحديث بصورته النمطية يدور في فلك العوالم المألوفة / القرية، المدينة، الجبل، الصحراء، البادية. أمّا العالم البحريّ في جانبه غير المرييء فلم ينعكس بشكل كاف في أدب بحر عربي حديث، وتشكل روايات حنّا مينة الاستثناء، مع بعض الروايات العربية الحديثة كرواية (السفينة) لجبرا إبراهيم جبر، و(من مكة إلى هنا) لصادق النَّيهوم.

فإذا كان هرمان ملفل صاحب (موبي ديك) روائي البحر الأول في الأدب العالمي، ثم جاء بعده أرنست همنغواى في روايته (الشيخ والبحر) قد أصّلا علاقة التوحد بين الإنسان والبحر، فإنّ حنّا مينه في روايته (الشّراع والعاصفة)[1]، وغيرها من روايات البحر،قد توحّد مع البحر توحّداً صوفيّاً لا تنفصم عراه.

وأدب البحر موضوع ثري يتّصل بالحضارة الإنسانيّة بوجه عام وبالحضارة العربيّة بوجه خاص، فللعرب قديما إسهامات مهمّة في عالم البحر وفي أدب البحر. ولا شكّ أنّ حكايات السندباد ورحلاته هي أعظم القصص في أدب البحر "إنّها القصّة البحريّة الكبرى في الأدب العربي، وهي فوق هذا من أهم قصص البحار في العالم "[2].

لم يعرف النثر السّوريّ قبل حنّا مينه، لم يعرف النثر السوري الحديث ما يمكن عدّه (أدباً بحرياً) إن صحّ التعبير، وقد بدأ رحلته الإبداعيّة مع البحر وجيرانه، فالبحر عند حنّا مينه هو عالم جديد، وعلاقات مفتوحة بين البشر. وأنواء وعواصف أمواج عاتية، وهدوء ساحر، وبحارة يقاسون فوق أمواجه الصاخبة، بفعل القلق والحياة المتحرّكة كأمواج البحر، والعلاقات الإنسانيّة المتغيرة دوماً. فأبطاله يواجهون في لججه الصاخبة الأخطار، ويعانون أشواق الحب واللقاء والفراق. وتتجسد هذه المعاناة في شخصيّة الطروسي/ البحار المغامر في رواية (الشّراع والعاصفة) إذ تقطّعت روابط الاتصال مع محبوبته ماريا– التي فاز بقلبها بعد صراعٍ دامٍ في إحدى موانئ العالم– بعد غرق شختورته المنصورة في اللجّة المظلمة.

ولئن استطاع كتّاب الرواية العربية في العصر الحديث أن يجسدوا عالم البحر، وما يجري في لججه من مغامرات وأهوال وأقدار معتمدين على المعمارية الروائية التي تتناول حقبة طويلة من الحياة، زاخرة بأحداثها وشخصياتها، فإن القصة القصيرة لم تستطع مجاراة الرواية في خوض المغامرة البحريّة بهذه التقنية العالية؛ لأن القصّة القصيرة "شكل ومضمون. زمنها لحظات ترصد حالة أو موقفاً، شخصياتها قليلة، ومفرداتها أدق تعبيراً وأعمق دلالة، وأهم ما يمزها ما تطرح، وكيف تطرحه؟. إنها بناء حجارته اللغة وهندسته البناء الجميل، وفي حالة طغيان المضمون، يرتدي البناء ثوب الخطابية أو الحكاية أو العودة إلى شعارات السياسيين أو حكايات الأقدمين، وعند سيطرة الشكل يتحوّل البناء إلى مجموعة رسوم وصور، ومالا صفة له، ولهذا تتطلب القصّة القصيرة الفنيّة (تطابقاً بين الشكل والمضمون)[3].

ورغم هذا المعوقات البنائيّة في معماريّة القصّة القصيرة لم يغب البحر في أعمال كتّابها؛ لأن هناك من يعشقون الأشرعة والأمواج والعواصف والصيادين وعرائس الماء، فشاطئهم كان وما يزال "سيد شواطئ العالم الذي انفسح منذ أقدم العصور ليزهر بأشواق الإنسان وأمجاده، ويحنو على خيباته ومآسيه المستمرة"[4].

---

[1] – **مينة، حنا، رواية (الشراع والعاصفة)، مكتبة ريمون الجديدة، بيروت، 1966.**

[2] – **فوزي، د. حسين، حديث السندباد القديم، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1943، ص356.**

[3] – **ينظر: اليافي، د. نعيم، التطور الفني لشكل القصّة القصيرة في الأدب الشامي، اتّحاد الكتّاب العرب، 1982، ص196–198.**

[4] – **يوسف، محسن، الغلاف الأخير لمجموعة "هرولة على الكورنيش الغربي" محمد سمير جعارة، دار كندة، 1998.**

مع هؤلاء العشاق، نتعرف على البحر وشاطئه بتضاريسه كلّها، وطيوره الجميلة، ومخلوقاته العاشقة لرماله وعواصفه وخيراته، في رحاب القصة القصيرة السورية، عبر منتجيها من أدباء الساحل / سيد شواطئ العالم...

أهميّة البحث وأهدافه:

يأخذ هذا البحث على عاتقة تقديم رؤية عن العلاقة بين الإنسان والبحر، وتحليل أبعادها الفنيّة والمعرفيّة من خلال دراسة نصوص قصصيّة لكتّاب عاشوا تقلبات البحر وأمواجه ورياحه وتياراته. إنّ تقنيّة البحر لم تكن وليدة المصادفة في العمل الفني، وإنما خلاصة لكل ما هو خالد ولامتناه.

إنّ الهدف من هذا البحث يكمن في تقدّيم صورة عن البحر في القصّة القصيرة؛ لأنه لم يحظ بدراسات قصصيّة جادة تصوّر العلاقة المصيريّة التي جمعت بين الإنسان والبحر.

منهجيّة البحث:

تتحدد المنهجيّة بأنها تتناول البحر وما يشكله من ظاهرة عظيمة في الحياة النثريّة المعاصرة،إذ يفتح الباب على مصراعيه للطرق والأساليب في سبر المجهول، وتصوير حياة جيران البحر على سواحل البحر المتوسط، وما يعانونه من فقرٍ بفعل سيطرة العملاء وتجار الحرب والسوق السوداء وذلك على وفق المنهج الوصفي، بما يتناسب مع طبيعة الدراسة الفنيّة للبحر، وعكس العلاقة الجدليّة بين الإنسان والبحر.

1-البحر وهموم الإنسان في قصص عبد القادر ربيعة:

غادر الكاتب عبد القادر ربيعة البحر باكراً، بعد إصداره مجموعة قصصيّة واحدة عنوانها (التّشويه من الداخل) ضمّنها نماذج من إنتاجه القصصي، وعبّر من خلالها " عن مشكلات جماعة من البسطاء على شواطئ البحار من الصيّادين والبحّارة وأسرهم"[5].

يكشف عبد القادر ربيعة في قصصه عن التحوّلات العميقة لجوانب الحياة المتناقضة، حيث تختلط القوّة بالضعف، والخير بالشّر، فالمرء مازال يعيش في فوضى غير قابلة للقياس، وفي معاناة الموت وسط الحياة. فالصراع بين الأقطاب المتناقضة عتبة قصصية انطلق منها الكاتب للكشف عن سر العلاقات الإنسانيّة التي تخيّم على حياة الناس وتحرّكهم. فتصير الجوانب الإيجابيّة عتبة لفهم القضايا السلبيّة والتخلّص منها، والتركيز على الجوانب السلبيّة منطلق لفهم الجوانب الإيجابيّة والتمسّك بها.

إنَّ الأقطاب المتناقضة هي في الأساس أفكار اجتماعية طرحها الكاتب في إطار سرديّ تلفه البساطة في ظاهره وأحداثه ومفرداته، لكنّ هذه الأفكار تشكّل بؤر التوتر النفسي والاجتماعي لشرائح المجتمع، إنّها كوابيس القضايا الاجتماعية التي تعاني منها شخصيات القصص التي ساقها عبد القادر ربيعة في مجموعته (التشويه من الداخل).

إنَّ (التشويه من الداخل) يعكس حالة ثقافيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة متأصّلة عكسها الكاتب على ألسنة شخوصه بأسلوبٍ سرديٍّ بسيط بدا منسجماً مع واقع الشخوص الثقافيّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ.

ولعل أهم ما يلفت الانتباه في قصص الكاتب كثرة المفردات البحريّة، ولا تخلو صفحة منها على مساحة صفحات المجموعة.

---

[5] – **ربيعة، عبد القادر، مجموعة (التشويه من الداخل)، اتحاد الكتّاب العرب، 1993، صفحة الغلاف.**

ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أدوات الصيد: الشباك والصنانير والياطر والدفة والسارية والقلوع والفلوكة.

رجال البحر: الصّياد، الربّان، القبطان، أبو المراكب، النوتي، البحّارة الفقراء.

البحر والمراسي: المرفأ، الميناء، السفن، الشّاطئ والرمال والأمواج، الأسماك والنوارس والعواصف الخ...

وعبر هذه المفردات تنمو القصّة، وتبرز شخصياتها من جيران البحر، وقد وشمت ملامحها بما يميزها عن سكان الداخل والصحراء والجبال، وعمد الكاتب في قصّته (شجرة الصبّار) إلى تسمية أحلى النساء، وهي زوجة بحّار باسم: بحريّة، ومع قصّتها يأخذنا ربيعة إلى بحره. يغادر البحّار مدينته على ظهر سفينة، يجوب البحار، ويتحمّل الأهوال مصارعاً العواصف من أجل تأمين حياة كريمة لأسرته الفقيرة. وفي الطرف الآخر من العالم تنتظر الزوجة عودة زوجها البحّار محمّلاً بالعطايا، المرأة الجميلة الطيّبة تصلها صورة لزوجها الذي يعمل على سفينة يونانية بين مجموعة من النساء العاريات " فالنساء الأجنبيات يعشقنه لأنه أسمر، وإذا رفض الإذعان لرغباتهنّ يطرد من عمله[6].

بحريّة تحبّه ولها منه أربعة أطفال، وتتعرّض لمحاولات إغواء عديدة كسواها من نساء البحّارة الفقراء، ويبدأ الصّراع في أعماقها بين الخير والشرّ، فتنتصر الفضيلة على الخطيئة، وترفض الإغراءات الماديّة كلّها. ولأنّها تحبّ بعلها الذي يعمل من أجل إطعام أسرته، ستغفر له ما يفعل كي لا يطرد، وسترمي الصورة الخبيثة في البحر، فهي واثقة من حبه لها، مؤمنه بأنه إنسان مكافح من أجل قيم آمن بها، ودافع عنها بلا هوادة.

أما قصّة (سفينة ربيعة الغارقة) فتختلف عن حكاية (بحريّة)، وتجري أحداثها المروعة في خضمّ الأنواء والعواصف. بحّارة يتمردون على القبطان الذي يعاملهم كالعبيد، ويحتكر كلّ شيء: الخمر والنساء والذهب، فيقررون عدم تنفيذ أوامره، فتغرق السفينة بمن فيها، والبحارة يرددون "عليّ وعلى أعدائي"[7].

وهي قصّة مرموزة، فالقبطان بأوامره وتصرفاته، صورة معبرة عن الحاكم الظالم المستبدّ، والبحّارة هم الشعب الجائع المهمل المستباح، وميزة القصّة أنها تفوح بعبير البحر، وتستخدم مفرداته كافة، ولا تضيرها رمزيتها، بل تمنحها جماليّة فنيّة وقيمة إضافية، لمقاربتها غضب البحر العارم وعواصفه، كرمز آخر، لواقع لا يمكن احتماله، استطاع الكاتب تصويره بمهارة فائقة...

2-البحر وحلم الخلاص في قصص محمد سمير جعارة:

على مسار الراحل عبد القادر ربيعة، يتحرك الأديب سمير جعارة، لكنه كان الأقرب إلى هموم جيران البحر وأحزانهم وأحلامهم، فهم فقراء، عضّهم الجوع، وتقطّعت بهم السبل، وانكفؤا على ذواتهم معبرين عن خيبة أملهم في النظم الاجتماعيّة السائدة التي لا تعترف بإنسانيّة الإنسان.

يتجمعون في حدائق الشاطئ ومقاهيه، ويحلمون بالسمك والمال وعروس البحر، والشّتاء -بالنسبة لهم- هو فصل العواصف والموت والجوع والمرض، وكما فعل عبد القادر ربيعة في توظيف مفردات البحر في كتاباته، تغصّ قصص سمير جعارة بهذه المفردات، وتفيض، وهو يلازم أشخاصه في تحركاتهم فوق تضاريس مدينة اللاذقية وشاطئها، مستخدماً لهجاتهم العامية لشرح أوضاعهم الاجتماعيّة والإنسانيّة، وما يكابدون من أجل حياة تبعد عنهم الخوف والفاقة والعلل، وهم يصارعون أمواجه الهائجة، وعواصفه المدمرة، بين رأس البسيط وابن هانئ والبطرني وساحة الشيخ ضاهر والكورنيش الجنوبي (وهي مواقع معروفة في مدينة اللاذقية الساحلية)، ويفتتح كتاب حكاياته الشخصيّة

---

[6] - **ربيعة، عبد القادر، مجموعة (التشويه من الداخل)، ، ص108.**

[7] - **المصدر السابق، ص131.**

مع البحر، وكان ما يزال فتىً صغيراً، وفوزه بجائزة السبّاح الأول، في قصة (الجائزة) يتابع سرد حكايات من يعرفهم، ممن غرقوا أو ماتوا، أو من بقي حياً، في ملحمة إنسانيّة، تبرز العلاقة الحميمة التي تربط الإنسان بالبحر، مصدر رزقه الوحيد، ويجسّد جعارة هذه العلاقة في قصة "رذاذ فوق أكواخ الصيادين":

"البحر سيد الجميع وحارسه يحبّه البحّارة كما يهابونه أيضاً. الرغيف يختبئ بين طيات أمواجه..... كل يسعى إلى الآخر، إذا ابتعد الإنسان عن البحر جذبته رائحة الملح، وإذا ابتعد أو تاه مركب ما، لفظته الأمواج على الشاطئ[8].

وهذا ما حدث في قصة أخرى، عنوانها (ياسين الأعرج) [9]، يتجمع الصيادون والبحّارة في مقهى (أبي الصرادعين)، "والعاصفة في الخارج تهدر وتزمجر"، ويطلب ياسين الأعرج من معلمه أن يصطحبه معه في رحلة صيد، ليرى عروس البحر التي حدّثه عنها جده، فهو يحلم بها لأنها حلوة، أحبها الجدّ الراحل كثيراً، وأصبح شخصيّة أسطوريّة تناقلها البحّارة في مغامراتهم ، لأن "ظهور رجال البحر أسهم في تطوير الشخصيّة الإنسانيّة وتفردها بالبطولة والمغامرة والحريّة وعدم التبعيّة ؛ إذ إنّ الحياة الخطرة فوق بحر شاسع، مضطرب الأمواج والعواصف، جعلت رجل البحر سيد مصيره"[10].

وهذا ما جعل ياسين الأعرج يختار مصيره، فيقرر الخروج ليلاً ويأخذ أحد الزوارق للبحث عن الحورية الجميلة، وفي الصباح، "وُجدت جثته ملقاة فوق رمال ابن هانئ"[11]. فالبحث عن المجهول وعن المستقبل يتلاقى مع البحث عن الجمال، وهنا سر علاقة الإنسان مع وجوده القاسي أو ظروفه القاسية.

إنها من النهايات المأساويّة والطبيعيّة، لمخلوقات تسعى لحياة أكثر راحة وطمأنينة، لا يمكن أن ينعموا بها، في ظل ظروف قاسية، لا ترحم الفقراء..

في قصة (أكلة سمك تكفي") تقدم إحدى الأمهات بعد أن عضّ الجوع أسرتها على سرقة كيس مملوء بالسمك، من الشاري الذي لم يشأ استرداده، بل راح يلاحقها، حتى وصلت إلى أحد الأحياء الفقيرة، حيث " الشرائح الفقيرة المسحوقة حتى العظم.. الأتربة هنا وهناك، وتلال القمامة منتشرة بشكل عشوائي"[12].

يفاجأ الشاري، وهو يقرع باب المنزل الذي قصدته المرأة، بخمسة وجوه صفراء لأطفال جوعى، قتل والدهم الذي كان يعمل في لبنان في الحرب الأهليّة اللبنانية...وهكذا تتوضّح الرؤية، فالمرأة تعيش واقعاً "هو مزيج من قهر وغبن واستغلال، يفرض عليها دور مجسد القهر والغبن"[13].

والقصة مثال للظروف القاسية التي لا ترحم الفقراء، في وطن الأسماك، والصيادين البؤساء والإنسان الباحث عن الخلاص من واقع يزداد بؤساً.

3-البحر وهموم الوطن في قصص محسن يوسف:

البحار الأخير هو أصغر الجيل الذي امتهن الكتابة، في فترة الخمسينيات من القرن الماضي... جيل حنا مينة وشوقي بغدادي ونصر الدين البحرة وسواهم، وله قصص عديدة كتبها آنئذ، كما دوّن في نهاياتها، وقرأ إنتاج جيله

---

[8] – جعارة، محمد سمير، مجموعة هرولة على الكورنيش الغربي، دار كندة، اللاذقية، 1998، ص115-116.

[9] – المصدر السابق، ص14.

[10] – ينظر: فيشر، أرنست، ضرورة الفن تـ (ميشال سليمان) ، بيروت، دار الحقيقة، ط1، 1965، ص52-53.

[11] – جعارة، محمد سمير، مجموعة هرولة على الكورنيش الغربي، ص 18.

[12] – المصدر السابق، ص18.

[13] – حجازي، د. مصطفى، التخلّف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، لبنان، 1986، ص216

الشعريّ والنثريّ، وأحبّ البحر وكتب عنه، وخاض أمواجه، في بداية فتوته وشبابه كمدافع عن وطن الآباء والأجداد، وتعرّف مرافئه وتضاريسه، بين مشرقه ومغربه، كما تبوح أعماله، ولا تخلو مجموعة من مجموعاته القصصيّة، من عبير البحر، كما توجّه بإبداعه عنه، إلى الفتيان والناشئة، في قصة تحولت إلى شريط تلفزيوني، وبها أستَهِلُّ دراستي لقصّة البحر، عند الكاتب محسن يوسف، والقصّة هي (أغلى من الذهب) [14]، وحملت في الشريط التلفزيونيّ عنوان " السمكة الذهبيّة "، وتتناول القصّة والشريط، ما يروى للأطفال عن سمكة من ذهب.

يشجّع الكاتب فيها الناشئة والأطفال على حبّ العمل، ومساعدة الآباء الصيّادين، ومشاركتهم في رحلات الصّيد، لأنّ العمل يؤمّن ما يحتاجون من غذاء ومال، وذهب أيضاً.

ولعلّ من المفيد ذكره أن (محسن يوسف) يأخذ دور الفارس في الدفاع عن الشاطئ السوريّ، ويتحدّث عن هموم سكّانه، معبّراً عن أحوالهم.

ومقاربته للبحر تنمّ عن خبرة طويلة أكسبته إياها أسفاره ورحلاته، برّاً وجوّاً، وفي السفن العابرة إلى موانئ العالم ؟، والطائرات المحلّقة في أجوائه؟.

ويبدو أنّ محسن يوسف يتطلع إلى تغيير الواقع والانتقال من الدفاع عن وطن الآباء والأجداد، إلى بناء شخصيّة عربيّة قادرة على إثبات وجودها، وقهر الغزاة ودفن أساطيلهم في اللجة المظلمة.

إنّ ارتباط البحر بأبنائه في قصص محسن يوسف تستخدم للتعبير عن ذاتها أشكالاً فنيّة بسيطة، ربما أنّ بساطة الأسلوب هي السمة الجوهريّة في قصص الكاتب، فالشعور بالبحر يمتلك كلّ الأصوات، ويهزّ كل القلوب بقوّة خفيّة" عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر"[15].

يوظّف الكاتب في قصّة (عريس البحر) [16] الحكاية الشعبيّة حول حوريّة البحر من خلال تجسيد صراع الإنسان مع قوى الطبيعة، وهو صراع يقود فيه حركة الإنسان المغامر في البحر إلى الانتصار على المجهول، وتحقيق الحلم.

إنّ بطل القصة والملقب بأبي الأدهم، يذكّرنا بالطروسي، بطل رواية الكاتب حنا مينة (الشّراع والعاصفة) وهما متماثلان، وأبو الأدهم هو استمرار للآخر، ولعلهما معاً، شخصيّة عامّة ترمز لعمالقة البحار. فهو كما يقول أرنيست فيشر: "مغامر اعتاد تعريض حياته للخطر..... ليس في نفسه ولاء للأرض وإنّما ولاؤه للبحر المتغيّر المتقلّب الذي لا يكفّ عن الحركة والذي يستطيع أن يهبط به إلى القاع أو يرفعه على قمّة أمواجه إلى الذروة"[17].

مع هذه الشخصية التي تتصدر شخصيات المجموعة وقصصها، يكشف الكاتب بعض ما يخبّئ البحر من أسرار، وما تمنحه المدن المطلّة عليه لساكنيها ومحبيها، من رؤى وأحاسيس، كعشّاق لعروس البحر، وعاشقات لحيتانه وصياديه. أبو الأدهم، يصفه من اصطفاه، هو:

"آخر فرسان جيل، ما زال في الميدان، وحسامه ما يزال مشرعاً في الهواء، ولا سيف سواه أو بعده ..... وهو رجل ولا كل الرجال، يقف الصقر على جناح شاربه، يقود قارب الصيد الذي يملكه، في ثورة العواصف البحرية، ليعود

---

[14] – يوسف، محسن، مجموعة (عندما بكى السندباد)، وزارة الثقافة، 1995.

[15] – ميّا، د. فاخر، مذكرات نقديّة، دار الينابيع، دمشق، 1997، ص21.

[16] – يوسف، محسن، مجموعة (الطيور)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1983.

[17] – فيشر، أرنست، ضرورة الفن، ص6.

محملاً بالسمك الطازج، ولا يستعذب الصيد إلا عندما يكون الموج كالجبال، وفي ذلك متعته العظمى، وفرادته بين الصيادين[18].

يرافقه الراوي في رحلة بحرية، يحدثه عن هموم الإنسان ومعاناة البشر في حارته (القلعة)، فهم طيبون، فقراء، لكنّهم كرماء، وهم أكثر شجاعة من الأسود، في أعماق كلّ منهم عنترة، وإلى جواره مجنون ليلى"[19]..

يسأله المرافق عن عروس البحر، وكيف ظهرت له، فيقص عليه ما حدث له:

"في ليلة عاصفة، اندفع البحر نحو اليابسة، وخرجت قوارب السادة إلى البحر دون قيود أو بحارة، وفي تلك الأيام، ظهرت لي عروس البحر، كانت ترتدي لباس الصيادين، وتقود هذا القارب الذي رافقني رحلة العمر"[20].

يتابع أبو الأدهم، وقد عرف من العروس أنها لم تستطع مقاومة العاصفة التي حملتها مع قاربها، بعيداً عن الشاطئ، وتطلب منه إعادتها إلى منزلها:

"عندما عرفت مكان منزلها صعقت، لم يكن مسموحاً للصيادين، للناس جميعاً، أن يقتربوا من ذلك المكان. ثمة حيتان ووحوش وعيون كالخناجر، ما أكثر ما فقدت المدينة من رجالها في مكان سكن عروس البحر؟"[21].

يسأل الراوي مستغرباً: "ألم تكن عروس بحر حقيقية؟"[22].

ينفي أبو الأدهم، أي وجود لعرائس البحر، فعالم البحر عالم من الموت والمجهول، وهو غامض، وليس كالبحارة الذين يعذبهم الشوق، إلى الجسد الدافئ والصدر الحنون، لهذا يحلمون بعرائس لا وجود لها...

يغادر سيد المدينة والد (العروس) في سفينة راحلة، ويتزوج ابنته " أبو الأدهم معشوق عروس البحر، حلم الصبايا، وعذارى المدن المسوّرة بالخوف، سيد الرجال، وسلطان الصيادين، وملك المدينة غير المتوج"[23].

توضّح هذه النهاية أهداف القصّة ورموزها، فالبطل متمرّد على واقعه المليء بالخرفات والأكاذيب، لأنها صناعة السادة والحكام.

تلتقي في قصّة (البحر) [24] جميع الصور التي يتخيلها الإنسان: الحبيبة، الشوق، الوطن، البحر، الأعداء. فالتداعي عبر تيار الوعي هو الأداة الفنيّة الذي يحرّك القصّة ويشكّل موضوعها ومعمارها الفني، ومن خلالها يتطور الحدث ويتداخل الزمان مع المكان، تتلاحم عناصر القصّة وتتشابك لتفضي إلى ما يسمّى وحدة الانطباع.

وتأخذ المرأة والحرب والذكريات مساحة القصّة، فالمرأة تخفق أجنحتها كطائر جميل بانتظار البطل المقاوم الذي يتصدى لغزاة شواطئ وطنه، والبحر لا يرحم الضعفاء. إنّه "كالحبّ، كالحياة، كالموت، والبطل يذكّر المحبوبة التي تنتظر عودته منتصراً بأنه حكى لها عن رحلاته، عن جبال الأمواج، وسحر المغامرات وعناد البحّارة وصبرهم، عن روعة المجهول في المدى اللامتناهي، عن الشوق الذي يعانيه البحار، المخاطر العاصفة "[25].

---

[18] – **يوسف، محسن، مجموعة (الطيور)، ص7–8.**

[19] – **المصدر السابق، ص13.**

[20] – **المصدر السابق، ص15**

[21] – **المصدر السابق، ص16.**

[22] – **المصدر السابق، ص18.**

[23] – **يوسف، محسن،مجموعة(الطيور) ص19.**

[24] – **يوسف محسن، مجموعة (معرض صور)، منشورات وزارة الثقافة، 1977.**

[25] – **يوسف محسن، مجموعة (معرض صور)، ص21.**

ومع استمرار إطلاق القذائف، والصمود أمام الأعداء، يؤكد لها أنّ النصر قريب، وعندما يعود سيخبرها عن أصدقائه الذين جسّدوا البطولة، وألحقوا الهزيمة بالمعتدين وأساطيلهم في ملحمة بطوليّة خالدة "إنّ جميع الأشياء تتحد في أثناء الحرب، تتشابك، تأخذ أعذب الصفات، تجعلنا نحبّها أكثر، نرهب فقدها، تشوهها، يتحد الموت بالحب والمرأة، الخطر والبحر والسماء والقذائف ووجه يطلّ علينا في لحظة غير منتظرة، يصبح ما حولنا أكبر منا، خاصاً بنا، يعذبنا، يسعدنا، ثم نتحول إلى ملائكة وأبطال"[26].

تتجسّد في قصّة، (جبال البحر الأسود) من مجموعة (أحزان تلك الأيام)، حكاية الصراع بين البحر والغزاة، ونهوض الإنسان العربي لتطهير البحر المتوسط من رجس الغزاة، وصمودها أمام الظلم، في هذه المعركة لا يحتدم الصراع مع الأساطيل الغازية فحسب، بل يمتدّ ليشمل أعداء الداخل، وهي أي الحكاية" تجمع بين الإيماء والإيحاء والرمز، وتصوير الواقع"[27]، ومنذ البداية تلفحنا نُسيمات البحر: "وكان البحر الأبيض المتوسط يطل من نافذة الطائرة التي تعبر البحر العربي.....، والبطل وهو يحلق في الفضاء، تثقل كاهله هموم الأرض والوطن، تقول له المرأة التي ترافقه: يمكنك أن تضيء مكانك، وتعيش أيامك كما يجب – أنت تطير فوق البحر العربي"[28].

يمدّ الكاتب بصره، ما عاد الساحل السوري، أو بحر بلاد الشام، مجرد مساحة من الماء، للتنزه والاصطياف وصيد السمك، بل هو الامتداد التاريخي والطبيعي لأحفاد أوغاريت وعمالقة الفينيقيين، إنه يمتلئ بـ(المارينز) على شاطئ بيروت، وبالأساطيل السوداء، حتى مدينة طرابلس الغرب المحاصرة.

يخاطب أنثاه متسائلاً: "أطير فوق البحر العربي؟ انظري... جبال من الحديد الأسود، قادمة من جميع جهات الأرض، لتحيله إلى بحر أسود... انظري إلى المداخن، إنها تملأ الفضاء تحتنا بالدخان الداكن، فيحجب عنا السواحل الخضراء والمدن الجميلة والجزر المشمسة. كان البحر الأبيض في الماضي كبيراً جداً وأكثر بياضاً – كان بحراً عربياً، فيما مضى، أما اليوم..."[29].

ولأنه يعاني ويتألم، يستمر في بوحه الحزين:

"كنت أملك القدس وبغداد وبيروت والقاهرة، وغيرها من المدن، أما الآن، فكل المدن محاصرة، حتى طرابلس محاصرة هذه الأيام، وعلى أميال من خليجها الدافئ يسبح الأمريكيون"[30] ترد المرأة، وهي الصوت، الآخر في القصة، واثقة بأن ما يجري سينتهي، ولن تستطيع أميركا ولا إسرائيل، ولا جميع الغزاة، من قتل إحساسها بوجودها، في وطن يستحق كل تضحية، ويمتلئ بالأبطال:

"ما نزال نملك كل هذه المدن، صحيح أننا اليوم لن ننعم بزيارتها، لكننا سنزورها فيما بعد، أما طرابلس فليست كالقدس، إنها ما تزال تومئ لنا، ويمكن لخليجها العظيم أن يبتلع الجبال السود..... إنّهما يعرفان معاً، فمن أبناء الوطن من يسعى لحرقه، وفي كل مكان منه، يقيم أحفاد التتار والمغول والأفاعي واللصوص، وهم الذين أتاحوا لجبال الحديد السود فرصاً لتربض بأثقالها ونفاياتها، فوق صدر البحر الصابر، بحر العرب، بحر الغزوات والأساطيل الغازية "[31].

---

[26] – يوسف محسن، مجموعة (معرض صور)، ص22.

[27] – بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر، ت(نعيم الحمصي)، وزارة الثقافة السوريّة، دمشق 1970، ص6.

[28] – يوسف، محسن، مجموعة (أحزان تلك الأيام)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط 1، دمشق، ص133–134.

[29] – يوسف،محسن ،مجموعة(أحزان تلك الأيام) ص135.

[30] – المصدر السابق، ص137.

[31] – المصدر السابق، ص138.

وعبر مقومات بطوليّة ضدّ قوي الطغيان الخارجيّة، وهزيمة أعداء الداخل، تنتصر الإرادة العربيّة، ويعود للبحر صفاؤه، وتحقق المقاومة ذاتها، ويستردّ الإنسان العربي روحه وقوته وشهامته ونبله.

إنَّ هذه الصورة التي يرسمها الكاتب تحمل في جنباتها نبوءة وخوفاً من التحوّلات الكبرى التي قد تعصف ببحر العرب وأرضهم، إنّها رؤية استباقية قرع من خلالها نواقيس الخطر، لا من القادم المجهول، بل من قوى الجبال الحديد السود، المتمثّلة بأعداء البحر والبر العربيين من محتلين وطامعين وغزات. لكن هذه الصورة الاستباقية التي رسمها القاصّ لم تنزع من صدره بشائر الأمل بالمستقبل، فقدر البحر الصابر، لا بدّ أن ينتصر كما انتصر في غابر الأيام، لأننا ما زلنا نملك كلّ هذه المدن والشواطئ.

خاتمة:

يمثّل البحر أحد مصادر الخلق والإبداع في الحياة النثريّة العربيّة المعاصرة ولاسيما الرواية منها بشكل خاص؛ لأنّ الرواية تمتلك من الخصائص الأسلوبيّة ما يؤهلها للإحاطة بعالم البحر وعواصفه، وهذا لا يعني أن القصّة القصيرة لم تخض غمار البحر وعواصفه، بل نلتقي بكتابات قصصيّة جسّدت عالم البحر بكل ما فيه من صخب وعواصف، وإن كانت لا ترقى إلى مستوى الرواية في خوض المغامرة البحريّة.

إن استعمال الأشكال القصصيّة لعالم البحر يعطي الحياة أبعادها الإنسانيّة، حيث أحيا القاص السوري –بكل مهارة– حكايات البحر، وما يعاني الإنسان على شواطئه من فقر وحرمان فعالم البحر شائق وحافل ودنيا كاملة لا ترضي البحّار ولا يطيق الابتعاد عنها.

ومن الجدير بالذكر هنا أن البحر عند كتّاب القصّة السوريّة امرأة جميلة متقلبة، ولوحة رائعة تضمّ الشمس وطيور النورس، ومجال حيوي لصراع الإنسان مع قوى الطبيعة من أجل البقاء. وتجربة في المواجهة المباشرة مع الرياح والعواصف العنيفة في المسيرة الإنسانيّة المستمرّة.

إنّ الكتّاب الذين وقفنا على نماذج من أعمالهم –على الرغم مما في تجاربهم القصصية من اختلاف في الأسلوب– قد انطلقوا في تصويرهم البحر من نقطة ازدلافٍ واحدة هي (الصراع) بين الأقطاب السالبة والموجبة؛ أي بين مفردات الخير والشر.

وأخيراً لقد شكّل البحر عند ربيعة، وجعارة، ويوسف، محطة مكانية وزمانية للعبور منها إلى عالمٍ أوسع هو الواقع الاجتماعي والسياسي الذي يلف المنطقة العربيّة.

المصادر والمراجع

المصادر:

جعارة، سمير، مجموعة (هرولة على الكورنيش الغربي)، دار كندة، 1998.

ربيعة، عبد القادر، مجموعة (التشويه من الداخل)، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1993.

مينة، حنا، (الشراع والعاصفة)، مكتبة ريمون الجديدة، بيروت 1966.

يوسف، محسن:

- مجموعة (عندما بكى السندباد)، منشورات وزارة الثقافة، ط1، 1995.
- مجموعة (أحزان تلك الأيام)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط1، دمشق، 1988.
- مجموعة (الطيور)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط1، دمشق، 1983.
- مجموعة (معرض صور)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ط1، دمشق، 1977.

المراجع:

بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة د.نعيم الحمصي، وزارة الثقافة السوريّة، دمشق1970.

حجازي، د.مصطفى، التخلّف الاجتماعي (سيكولوجيّة الإنسان المقهور)، معهد الإنماء العربي، لبنان، 1986.

فيتشر، أرنست، (ضرورة الفن)، تر: ميشال سليمان، بيروت، دار الحقيقة، ط1، 1965.

فوزي، د.حسين، حديث السندباد القديم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1943.

ميّا، د.فاخر، مذكرات نقديّة، دار الينابيع، دمشق، 1997.

يوسف، محسن، الغلاف الأخير لمجموعة "هرولة على الكورنيش الغربي".

اليافي، د. نعيم، التطور الفني لشكل القصّة القصيرة في الأدب الشامي، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 1982.